بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الخامسة

منذ بضع وثلاثين سنة صدر هذا الكتاب ، وشق طريقه فى زحام الحياة ، وظهرت منه سراً وعلناً طبعات شتّى فى أقطار العالم الإسلامى ...

ويجدر بى أن أذكر حقيقة تتصل بالطبعة الأولى منه ، فقد أخبرنى الناشر أن المفتى الأكبر لفلسطين - سماحة الحاج محمد أمين الحسينى - أمر بشراء ألف نسخة وكلّف « اللجنة العربية لإنقاذ فلسطين » بإهدائها إلى مَن ترى ..

وذهبتُ إلى المفتى المجاهد لأشكره فقال لى : إنك كشفت المحور الذى يدور عليه الاستعمار العالمى ، وعرّيته من ألبسة الزور التى يستخفى فيها ، وفضحت وسائله وسماسرته وأهدافه ..

وقد سبقك جمال الدين الأفغانى إلى تقرير هذه الحقيقة عندما قال : إنَّ الغرب لا يزال ينظر إلى الشرق الإسلامى بعين « بطرس الناسك » ، وسريرته السوداء !! وهى كلمة حق تحتاج إلى الشرح وقد قمتُ به ..

ولم يطل فى القاهرة بقاء القائد الإسلامى لثورة فلسطين ! سرعان ما جُرحت كبرياؤه وأُحرجت مكانته - بدسائس سوف نكشفها يوماً - فذهب إلى لبنان ليموت مستوحشاً مهزوماً ، ولتتحول قضية فلسطين إلى ثورة علمانية مبتوتة الصلة بالإسلام ...

وفى تلك الأيام ثارت قبرص على إنجلترا لتتحرر من سلطانها ، وتولى قيادة ثورتها « الأسقف مكاريوس » ولا عجب فهو الوجه الدينى للتمرد اليونانى ، ولم ير العرب بأساً فى الاعتراف به والتنويه بزعامته ، بل لقد جاء القاهرة وزار الأزهر !!

قلتُ فى نفسى : لماذا رُفض الوجه الإسلامى للثورة الفلسطينية ، وقُبِلَ الوجه الدينى للثورة القبرصية ؟؟ إنَّ للعِلمانيين العرب منطقاً عجباً ..

ومضت الأيام ، وانقسمت قبرص ، بعد ما شعر المسلمون فيها بالغُبن ، وظل الفلسطينيون إلى يوم الناس هذا يتصببون عرقاً فى كفاح يائس ! تُرى هل أفادتهم العِلمانية شيئاً ؟

إنَّ إسرائيل تنمو ، وحلفاءها يزدادون ضراوة ! ولن يُرزق عرب فلسطين سهماً من نصر إلاَّ إذا عادوا إلى دينهم ظاهراً وباطناً ، إنَّ النصر يبعد عن المسلمين قدر ما يبعدون عن دينهم !

وليس المهم أن تعود عمامة المفتى ! إنما المهم أن يعود فؤاده وبصيرته ، المهم أن نستند إلى الله ونحن نقاتل عدوه وعدونا ..

بعد عشرات السنين من صدور هذا الكتاب أرى أنَّ اختلاف اللَّيل والنهار يؤيد التجارب التى ذكرها ، والحوادث التى ساقها ، والمبادئ التى أكدها .

إننا لا نطغى وإنما نحارب الطغيان

إننا نحتفظ بحقنا فى الحياة ، ونكافح مَن يريد حرماننا منه !

أهذا كثير ؟ هذا هو كفاح دين .. !! دين يريد البقاء ويريد له خصومه الفناء ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ مِنَ القَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ رَبِّ احْكُم بِالحَقِّ ، وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾[1] .

محمد الغزالى

* * *

(١) الأنبياء : ١١٠ - ١١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

أليس عجيباً أن يظل الغرب - مع تفوقه العلمى الظاهر - صريع أحقاد قديمة وأفكار بالية ، وأحكام يرسلها على الناس إرسالاً لا يضبطها عقل ، ولا يزنها ضمير ؟؟ إنه ما زال يخاصمنا دون وعى .

إنه ما فكر قط فى تصحيح علاقتنا به على أسس كريمة نقية .

إنه يتابع - فى حماقة - سلوك الأسلاف فى العصور الوسطى ، فما يعمل إلا طالباً لثأر مزعوم ، أو متحركاً بترة يتخيلها !!

ومن ثَمَّ تبرز فى سياسته ضغائن صليبية مفتعَلة لا تحتاج رؤيتها إلى بصر حديد ، فهى بادية كالحة تقطر سماً على الإسلام وأهله ، وعلى العروبة وجنسها .. !!

إنَّ هذه السياسة تتخذ من الإنسان النبيل « عيسى ابن مريم » تكأة تعتمد عليها ، وتتذرع بها إلى فعل الكثير .

وهى بهذه الشارة المجلوبة تحاول - مستميتة - محق التراث الدينى لرجل من إخوة عيسى . ومن أجَّل شركائه فى شرح الحق ، وهداية الخَلق ، ومكافحة الباطل ، وإفاضة نعمة الله على جميع عباده ، ألا وهو «محمد بن عبد الله » صلى الله عليه وسلم .

النبى العربى الكبير ، وصاحب الرسالة التى أناوت العالَم بعد ظلمة ، وآنسته بعد وحشة ، وبذرت فى أكنافه أصول العدالة والمرحمة ، واحتفظت فى كتابها بمعالم الوحى الإلهى الذى آخى بين النبيين ، وسوَّى بين الأمم ، ونوَّه بقيمة الفِطرة ، ومكانة العقل ، وعظمة الكون ، واستخلاف الله للإنسانية فيه .

لقد طلع الاستعمار على العالَم بنية مغشوشة ووجه مشئوم ، ورمانا - نحن المسلمين - بأوزاره الثقال .

وها قد مرت سنون طوال والجهود دائبة لمحو عاره وغسل آثاره .

وقد وصلنا اليوم لمرحلة عظيمة نحو الخلاص منه .

وفى أقطار شتّى من الشرق الأوسط والأدنى ، نسمع أصداء متجاوبة تتحدث عن العروبة ويقظتها وآمالها وحقوقها ، كما نرى المد الاستعمارى ينحسر عن بقاع شتّى ظل بها أمداً .

إنها حركة ناجحة ، وإن زحف الأحرار ليأخذ طريقه إلى الأمام .

وإعزاز العروبة من شعائر الإسلام .

روى الترمزى عن سلمان الفارسى قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا سلمان ، لا تبغضنى فتفارق دينك » ! قلت : يا رسول الله ، كيف أبغضك وبك هدانا الله ؟ قال : « تبغض العرب فتبغضنى » !

وروى الترمذى عن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن غَشَّ العرب لم يدخل فى شفاعتى ولم تنله مودّتى » .

فما من مسلم إلا وله من دينه دوافع تجلة - ولو كان هندياً أو فارسياً أو تركياً - يحب العروبة ويحمى بيضتها ويصون حماها .

والعربى المسيحى ، لن يكره جنسه ما دام مستقيماً مع طبيعته !

بل هو لم يكره محمداً ﷺ أو يضيق بأتباعه .

إنه يؤمن بعبقريته إن لم يؤمن برسالته .

وهو يتنغنى بأمجاد قومه ودعائم حضارتهم إن لم يشركهم فى صلاة ، أو يصدقهم فى اعتقاد .. !!

وهنا يتدخل الاستعمار ، أو من هنا حاول بَثّ مكايده ، وتأمين مآربه ، وإشباع ضغائنه ..!!

إنه من أمد بعيد يرتب الأمور على النحو الذى يشتهى ، ويحفر المسايل كى تجرى الأفكار والمشاعر إلى الغايات التى حدّها وداخل الشطآن التى أعدها !!

وما يبغى ؟

يبغى القضاء على الإسلام !

وفى سبيل القضاء عليه يجب أن تموت العروبة .

فإذا قدِّرت له أو لها حياة ، فيجب أن يتدخل ليجعل الدين عنواناً بلا موضوع وليجعل العروبة جسماً بلا روح .

* * *

والحق أنَّ ظهور القومية العربية - مع تحفظنا على هذه النزعة - وانتصارها فى أكثر من ميدان ، كان مباغتة متعبة للاستعمار ، وعنصراً مربكاً لخططه . فهى فى ناحية الشكل عنوان لا ينبغى أن يخيف . لكنها من ناحية الموضوع قد تقوم على موادة الإسلام ومواصلة أهله . وهذا ما يغتاظ منه ، وينتصب لمخاصمته ، إنه يكره العروبة لأنه يكره الإسلام .

وهو لم يتوان فى حربها أو يدخر وسعاً فى تقليب الأمور لها .

ومن الكذب على الله وعلى الناس ، الزعم بأنَّ الاستعمار لم يكن مدفوعاً فى هذه العداوة بأسباب دينية يخفيها حيناً ويبديها حيناً آخر ، وفق الظروف التى تعرض له !

وأنا رجل عربى الجنس أدين بالإسلام .

وهناك نصارى عرب لا يوافقوننى فى معتقدى .

وأعرف أن القومية العربية تشملنى وتشملهم ، وأن دائرتها تجمعنى وإياهم فى نطاق واحد .

وماذا فى ذلك ؟ وأى ضير علىّ أو عليهم ؟

ليبقوا على دينهم ولأبق على دينى !

لكن الاستعمار يرفض هذا ويغتاظ له كما قلنا !

إنه يريد القضاء على الإسلام ، وإيصاد الأبواب أمام معتنقيه .

وهو لو أبقى العروبة العامة ، وبقى معها إسلام عربى ومسيحية عربية ، فإنَّ أمنيته الآثمة فى الفتك بهذا الدين لم تتحقق .

فلا بد إذن من القضاء على هذه العروبة ، حتى لو كلّف العرب المسيحيين أن يتخلوا عن جنسيتهم ويبرأوا من دمهم ، ويفصموا الأواصر بينهم وبين ماضيهم وحاضرهم !

وهم - فى نظره - فاعلون . !

وقد أوعز الاستعمار إلى زبانيته كى يدفعوا بالأوضاع العلمية والاجتماعية والسياسية إلى هذا المصير ، وأدار مؤامراته فى وادى النيل ، وفى أقطار المغرب ، وفى ربوع الشام لبلوغ هذا الهدف الخسيس .

ووقع فى أحابيله جم غفير من المسلمين والنصارى .

بَيْدَ أنَّ الأقدار الطيبة لا تزال معنا ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ (١) .

ولست أحب أن أخدع أحداً ، ولا الخداع من شيمى .

إنى أحب العروبة وأعمل على إنجاح قضاياها وإنصاف أهلها وتقدير رجالها لأننى مسلم .

واستمساكى بدينى لا يعنى أبداً أن أحرم مواطنى العربى - أياً كان دينه - حقوق الوفاء والبر والمودّة الواجبة له .

وأريد منه أن يعاملنى بهذه القاعدة لا يعدوها ولا يزيد عليها .

أما أن يُقال : دع دينك فقد أصبح الكل عرباً . فهذا هو اللّغو السخيف .

أو هذا ما يود الاستعمار أن تنتهى الأمور إليه . حتى لا يكون إسلام ولا قرآن !

---

(١) التوبة : ٣٢

وقد ألّفتُ هذا الكتاب لأُنَقّى الجو العربى من هذه النزعات .

ولأقطع الطريق على ما تجيش به نفوس المستعمرين من وساوس .

ولأنصف ديناً تلح اللّيالى على النَيل من قداسته .

ولألقى أضواء على الأمشاج الهائلة التى تطفح بها دنيانا بعد ما بلونا فنوناً لا تُحصَى من الغزو الثقافى الجلى منه والخفى .

بل بعد ما أفلح هذا الغزو فى خلق أشباح متحركة تعمل لحسابه ، وهى تدرى أو لا تدرى !

قلت : إنّ ظهور القومية العربية ، وتسلمها زمام الأمر فى مصر وسوريا ، وتردد صداها فى كل فج كان مفاجأة بعيدة الأثر فى السياسة العالمية من ناحية ، وفى الأوضاع المحلية لدينا من ناحية أخرى .

ذلك أنه مسح - بين عشية وضحاها - كل ما أثاره الاستعمار من نعرات إقليمية ضيّقة .

وأنه أخرس المتهجمين على اللُّغة العربية وآدابها ، ورَدّ إليها الحياة فى عالَم التجارة والمال ، وفى أنحاء المجتمع والدولة .

وأنه أنعش مقوماتنا الخاصة ، وتاريخنا وكياننا المادى الأدبى ، واستعاد ما سرقه الاستعمار من هذه الأمجاد .

وشئ آخر أقوله :

إنّ هذه القومية العربية ستحرر الكنيسة الشرقية من تأثيرات التوجيه الغربى المشوب .

وتُمكّن المسلمين - كذلك - أن يعملوا بدينهم ، وأن يحيوا وفق نظمه ، وأن يعيدوا إليه المكانة التى اجتهد الاستعمار فى إسقاطها ، أو التى خلق أجيالاً لا تعترف بها .

إنما تنطلق العروبة إلى غاياتها الرفيعة برجالها الأصلاء ، ورجالها الفاقهين لحقيقتها المتجاوبين مع طبيعتها . اللابسين إشاراتها عن صدق واقتناع .

ونحن قد يتملكنا الضحك الساخر حين نجد فى موكب العروبة نفراً من الناس يزعقون وينعقون دون وعى أو دون إخلاص !

لقد بوغتوا باسم القومية العربية ، فإذا هم يمثلون فى نُصرتها الدور الذى مثّلوه فى نُصرة غيرها أيام العهود السابقة .

إنّ هناك صحافيين - لا تنقصهم القحة - حيوا فاروق أجمل تحية ، ثم حيوا من بعده جمال عبد الناصر .

ومنهم مَن هزأ بالعروبة وجامعتها ، دعا إلى المصرية الخالصة .

وهو - الآن - بادى الحماس فى تأييد القومية وتحية أبطالها .

وقد يكون فى المجال متسع للمنافقين والمخلصين على سواء ما دام العمل صحيحاً .

ونيّات الناس إلى اللّه بعدئذ . فهو سبحانه الذى يجزيهم بما فى قلوبهم .

هذا حق ، وليس لنا أن نتدخل فى مكنونات السرائر .

لكن الذى نخشاه ، ونحذّر منه ، ونتوجس من عقباه على مستقبلنا ، ذلكم الصنف من الناس الذى لا يعرف من العروبة شيئاً قط إلا طنيناً يزعج آذانه أو يحرك لسانه .

أما هو ، فإنسان خلقه الاستعمار القديم خلقاً .

ملأ أقطار نفسه وحسه ، وشحنه بقوى معيّنة فهو يدور بها وحدها كما تدور لعبة الطفل بعد ما يملأ آلاتها ، ثم تسكن بعد فراغها .

كيف يكون عربياً هذا المرء الذى انسلخ من طبيعته وماضيه وقومه الأوّلين ولغته العريقة فهو لا يبدى رأياً فى شئ إلا كما علّمه الأجانب ؟

ولا يردد كلمة فى فمه إلا والإنجليزية قبلها أو بعدها .

ولا تسمع له حكماً إلا إذا كان تردداً لقول مستشرق .

فإذا استقصينا منابع فكره لم تجد فيها ينبوعاً عربياً .

وإذا تحسست آماله وآلامه ، وجدته مبتوت العاطفة بإخوانه وجيرانه .

ومع ذلك يقول : إنه عربى !

إنَّ العروبة لو كانت زياً يُلبس ما كلّف نفسه دفع ثمنه !

فكيف وهى حضارة ، وآصرة ، ولسان ، وخليقة ، ودعوى ، وحقيقة ؟

إنَّ أول ما نصنع لحماية العروبة هو الضرب على أيدى هؤلاء ، وتأخيرهم من حيث أخَّرهم اللّه .

قال الدكتور « محمد البهى » فى محاضرته عن « مستوى الكفاية الفنية » بعد كلام عن فريق من هؤلاء :

« ... أريد أن أخلص من ذلك إلى أن الروح التى خلقها الاستعمار البريطانى ونماها على النحو الذى أشرنا إليه آنفاً ، لم تمت بقيام الثورة المصرية الحديثة . سنة ١٩٥٢ حتى الآن .

وكل ما للثورة من أثر فى ذلك أنها جعلت أتباع « ديوى » [١] يتوارون خلف مبادئ الثورة - متظاهرين باعتناقها -ثم يدفعون ما بأنفسهم إلى الأمام ، متسماً بما يوائم طابع هذه الثورة فى التوجيه العام » .

ثم قال الدكتور : « إن الإسلام لا يهاجم .

ونحن لا نريد من أتباع « ديوى »أن يتخلوا عن مناصبهم فى وزارة التربية والتعليم ، ولا نطلب من الوزارة نفسها أن تعفيهم من هذه المناصب .

---

(١) مفكر أمريكى فصل الدين عن مناهج الدراسة ، لأن الدين - الذى يألفه بداهة - ضد العلم . ويرى اختلاط الجنسين فى مراحل التعليم كلها ... وهو فى نظر بعض المسئولين رائد لا يخطىء ، ولذلك يرددون أفكاره هنا ويحاولون نقلها إلى بيئتنا .

إنما نريد لأتباع « ديوى » فى مصر أن يعيشوا فى تفكير القرن العشرين ، لا فى تفكير القرن التاسع عشر ، وهو تفكير « اسبنسر » ، و « ديون » .

وأن يدركوا خصائص الثورة المصرية الحديثة التى قامت منذ بداية النصف الأخير من قرننا الحاضر .

إننا نطلب إليهم أن يستقلوا فى التفكير التربوى ، كما استقلت مصر فى عهد الثورة فى سياستها الخارجية ، وتخلصت من جاسوسية شركة قناة السويس ونشاطها الهدّام فى مصر .

نطلب إليهم أن يدرسوا تراث هذا الوطن العربى الإسلامى ، وأن يفهموه جيداً .

فإذا فهموه عرفوا أن الإسلام لا يهاجم ، كما هاجم بعض مفكرى المادية الغربية فى القرن التاسع عشر الكنيسة الكاثوليكية .

إذا فهموه عرفوا أنَّ الإسلام لا يتجر بصكوك الغفران ، ولا يقر الوثنية فى أية صورة .

فلا يقر الوسيلة والتوسل ، ولا يقر قداسه المفتى فيما يُفتى به ، ولا عصمة المفسِّر لكتاب اللّه .

إنه يدعو إلى التوحيد . وما هو التوحيد ؟

إنه إله واحد ، وإنسان واحد ، ومجتمع واحد .

إذا فهموه عرفوا أن الإسلام يدعو إلى العلم ، وإلى الهداية !

﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

وأنه يؤيد العلم ، إذا كان يقيناً ، وحقاً ، وهداية .

---

(١) الصف : ٩

ولكنه لا يؤيد العلم - الذى هو ظن واحتمال ، لأن الظن لا يصلح للهداية - وإنما يصلح لها الحق وحده .

إنَّ أتباع « ديوى » يعيشون على أرض هذا الوطن غرباء .

وآن لهم أن يدركوا مقوِّمات هذا الوطن العزيز وتوجيه هذه الثورة العربية الحديثة .

ذلك إذا أرادوا تنظيم التوجيه ، وإيجاد وعى عربى سليم عن طريق التربية » والحقيقة أنَّ ذلك أصبح أمراً لا بد منه .

فقد أصبحت كلمات « القومية العربية » و « الحياد الإيجابى » معالم بارزة لاتجاهنا السياسى ، وتحديداً حاسماً لمواقفنا فى أغلب القضايا العالمية .

ونحن سعداء بهذا الفهم الواعى لحاضرنا ومستقبلنا .

ولكن يظهر أنَّ لهذه الكلمات دوياً فى بعض الرؤوس يشبه دوى الصناديق الفارغة .

بل إن البعض يجعل هذه الكلمات غطاء لما رسب فى ذهنه من بقايا الاستعمار .

فهو أجنبى القومية ، غريب النزعة ، عاجز عن المواءمة بين ماضيه الذى أفسده الغزو الثقافى وبين نهضة البلاد إلى استعادة أمجادها الأولى ، ووصل ما انقطع من حضارتها العظيمة .

وهو - لذلك - غير محايد فى فهمه للأمور ، ولا فى حكمه عليها .

وسياسة عدم الانحياز التى تشرف نشاطنا الخارجى لا وجود لها فى النشاط الذهنى لهؤلاء الذين تربوا آماداً طويلاً على الإعجاب بالدروس المغشوشة التى تركها الاستعمار فى نفوسهم .

فهم منحازون - فعلاً - إلى آراء سادتهم الأقدمين يفكرون بالعقول التى صنعها هؤلاء السادة فحسب !

ومثل هؤلاء لا يؤمَنون على توجيه ، ولا يُوثَق بهم فى لون ثقافى ، ولا يجوز أن نترك الأجيال المقبلة وديعة بين أيديهم ، فهم مفسدوها حتماً .

إنَّ رئيس الجمهورية .. صاحب فلسفة الثورة .. أوضح - بجلاء - أنَّ العروبة أساس الثورة .. وأنَّ الإسلام دين الدولة .

ومن ثَمَّ فكل اتجاه لتغليب الطابع الأجنبى ، أو تهوين الروح الدينى ، أو إضعاف الأدب العربى ، أو تسويغ الانحلال الخُلُقى ، أو تشويه التاريخ الإسلامى يُعَدُّ خروجاً على الدستور ، وتعويقاً لثورة البلاد .

إن الزعم بأنَّ القومية العربية تعنى إقصاء الإسلام ، وإهمال شأنه ، والزهادة فى أصوله وفروعه ، زعم فاسد قذر .

وهو محاولة من الإنجليز السمر - أعنى العلوج التى ربَّاها الاستعمار الأجنبى لنفث سمومها فى مجتمعنا والمواءمة بين الأفكار الفاسدة التى تربت عليها - والنهضة العربية الحديثة التى صنعناها ، والتى حققنا مكاسبها بدماء المؤمنين وحدهم !

* * *

وهذا الكتاب للبناء لا للهدم ، وللوحدة لا للتفرقة .

لقد أظهرتُ فيه ما يقع للإسلام وأهله من أذى حيث تنجح سياسة الاستعمار فى إقامة حكومات موالية لها .

وسيرى القارئ من فضائح الغل الدينى ما يجعله يوقن بضرورة إنهاء المآسى التى خلقها هذا الاستعمار اللَّعين .

ثم تتبعتُ آثار الاستعمار فى البلاد التى أُكْرِهَ على الرحيل منها ، وكيف أنه طوى بساطه من بعض الأراضى وبقى ممدود الرواق فى نفوس لا تزال يحتلها ويلقى خيامه فيها !!

وقد ذكرتُ أمثلة موجزة ونماذج منوَّعة .

فلستُ أملك وسائل الحصر والاستقراء .

وأسأل اللّه أن يجعل منه ذكرى نافعة وبصيرة لأولى الألباب .

محمد الغزالى

* * *